هــموم الكتابـــة

أ.د. محمد مرتاض
جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان

إنّ مهمّة الكاتب لم تعد ذات هدف واضح، فمع إيماننا ويقيننا بأنّ الكاتب لا يعيش من كتابته، فإنّنا مع ذلك نأْسف لكون هذا الكاتب لا يستطيع أن يحصل على المكافأة الأدبيّة والمادّية التي يستحقّها تعبه واحْترافه لمدّة طويلة من أجل أن يسطع نور قلمه على العالم الآخر، ويرفع من قيمة بلاده بتضحيّته حتّى براحته الأسبوعيّة، وبالسّهر مع عائلته ، وبالْتذاذ النّوم في وقته... إنّه يبدأ بعد ما ينام البشر ليستريحوا، أو يستيقظ مبكّراً قبل الآخرين، ثمّ يبدأ في مداعبة الورق والبراع لعلّه يظفر بكلمة تكون طرفا يوصله إلى إبداع، أو نقد، أو دراسة، أو غير ذلك، وقد يُقضّي السّاعات الطِّوال يبحث ثمّ يبحث فلا تستجيب له مخيّلته ولا مداركه بأيّ شيء، وهذا الذي يمرّ به الكاتب الجزائريّ من مراحل مُضْنية قبل الوصول إلى تفْتيق قريحته؛ يشاركه فيه كثير من الكتّاب العالَميّين. فالكتابة عمليّة موحّدة الولادة، ذلك أنّ الكتابة عبارة عن طقوس لدى كثير من كتّاب العالم المعاصرين أو الرّاحلين، فلولا تلك الطّقوس التي يحيا فيها الكاتب بين بخور سيجارته، أو رشفات شايه وقهوته، أو نفثات نفسه عاكفاً ، لَما برز إلى العالم كتاب واحد.

أجل، إنّ كثيراً من الكُتّاب وخصوصاً بعض المبدعين منهم، يزعمون أنّ العمل الأدبيّ هو الذي يكتبهم وليسوا هم الذين يكتبونه، ولكنّها مقولة فيها من المبالغة الكثير؛ إذْ إنّ العمل الأدبيّ، ومهما تختلف الطّرائق والوسائل، فإنّه لا بدّ أن يمرّ بفترة مخاض، ولكنّ شكل الولادة هو الذي يختلف، فقد تكون مُسْتعْصية عسيرة، أو ميسّرة سهلة؛ تَبَعاً للفكر، والعقل، والتّركيب. فقد يكتب واحد مثلاً قصّة قصيرة في ساعتين من الزّمان أ, أقلّ، بينما يستغْرق الآخر في تدْبيجها شهراً أو حولاً. وهنا، نلج إلى منعرج آخر يجرّنا إلى تساؤلات: ما هو العمل الفنّيّ النّاجح؟ أو بعبارة معاكسة: هــل العبْرة بالمُدد الطّويلة التي يقضيها المبدع في عمله؟ . لا نرى ذلك، لأنّ الواقع يؤكّد أنّ امرءاً ما ، قد يسلخ من عمره عشر سنوات في كتابة رواية واحدة ، ثمّ إنّ الولادة لا تكون أكثر من فأر تمخّض عنه جبل !. بيد أنّ هذا لا يمنعنا من الاعْتراف بصعوبة الكتابة، ممّا يفرض علينا أن نتلقّى أيّ عمل أدبيّ أو فكريّ

مهما تكن قيمته أو درجته بالتّقدير. وهو ما يجعلنا نشجّب نظريّاتنا المسْتهْلَكة في الحقل النّقديّ، والتي تفرز غالباً الأعمال أو تصنّفها إلى صنفين: صنف جيّد، وصنْف رديء! .إنّ الفنّ لا تُطلق عليه مثل هذه الصّفات، ولا تصدر عليه هذه الأحكام، لأنّه ليس تفّاحا أو برتقالاً ننْتقي فيه النّاضج الجيّد من الفجّ المتعفّن، وإنّما هو فنّ يخدم المجتمع بصورة أو بأخرى،فإنْ لم يخدم المجتمع يقدّم خدمة إلى الفنّ، وهذا حسْبه حتّى وإن اختلف معنا الاجتماعيّون .

وما دمنا بصدد الهموم والمتاعب التي تمرّ بها عمليّة الإبداع والكتابة بوجه عامّ، فإنّا نورد أمثلة عن كتّاب بارزين بلغوا أوْج الشّهرة، وتربّعوا على قُنن العالميّة؛ ونذكر منهم بادئ ذي بدء، الرّوائيّ الكولومبيّ (ماركيز) الذي يفرض على نفسه نظاماً قسريّا حيث يعْتزل الأسرة والمجتمع ويقْبع في مكتبه يوميّا من السّادسة صباحاً حتّى الثّانية بعد الزّوال بدون توقّف ([1]) بعدما يقرأ لمدّة ساعتين ، ثمّ يمتشق قلمه وينكبّ على الكتابة فيما تبقّى من المدّة المذكورة؛ فيصير عدد السّاعات التي يخصّصها للكتابة سبعاً، وهذا العمل اليوميّ للإبداع لا يعرف فتورا ولا تقطّعا حتّى يوم الأحد الذي هو عطلة رسميّة في بلاد (ماركيز) ؛ أي إنّه لا يخلد إلى الرّاحة إطلاقاً. ومثال آخر نستضيء به؛ ويتعلّق بالكاتب البرازيليّ المعروف (جورج أمادو) ـ والـذي من أشهر أعمـاله روايـة « العرق» ـ هذا الكاتب يشرع في الكتابة من السّادسة صباحا حتّى الواحدة أو الثّانية بعد الزّوال ، تَبَعاً لشهيّة الكتابة وقابليّتها عنده . والمعروف عنه أنّه قد لا يسوّد أكثر من صفحة واحدة عبْر المدّة المذكورة يرْتاح لها ويطمئنّ لفحْواها دلالةً ومدلولاً. وعندئذ، يشعر بغبطة لا نظير لها ، لأنّ العبرة ليست بالكمّيّة، وإنّما بالنّوعيّة، تماماً مثلما هو الشّأْن بالقياس إلى نجيب محفوظ الذي يخصّص السّاعات الطّوال للكتابة يوميّا، إلاّ أنّه قد لا يعْدو المقدّمة أو المخطّط الأوّليّ في كثير من الأحيان لولادته الجديدة، ذلك أنّ الكتابة ليست فاصولْيا أو بصلاً، حسْبُنا تهْيئة التّرْبة الخصبة، وانتظار الأمطار أو الرّيّ الاصطناعيّ ليخضرّ الحقل، وتُثْمر البقول، وإنّما هي فرس جَموح لا يمتطيها إلاّ الفارس الماهر المثابر الصّبـور!.

من هنا، تزداد عمليّة الكتابة صعوبة وعُسْرا، ولو وقف الأمر عند معاناة الكاتب في نتاجه لهان الأمر، ولكنّ الطّامّة الكبرى أن تذوب تعسا وتحترق ألما من أجل أن تخرج إلى هذا العالم مولودا جديدا، ولكنّ هذا العالم يخنق وليدك ولا يسمح له برؤْية الشّمس، بَلْهَ النّموّ أو الوقوف على سوقه . فهناك سعْلاة حادّة المخالب تمتصّ الدّماء، وتُبيد الأجنّة: إنّها

المطابع التي تتلقّاك بقهقهة وأسلحة حديديّة تطحن هذه النّتاجات في نَهَم ... وكم من كاتب ظلّ ينتظر السّنوات والسّنوات من أجل أن يظهر عمله دون جدوى !.

والكاتب حالياً يشكو البطالة القسْريّة، وإلاّ، فهل من المنطق أن يُقال إنّ دار النّشر الفلانيّة خسرت كذا وكذا مليوناً أو ملياراً؟.. وهي بناءً على ذلك لا تستقبل أيّ مخطوط جديد؟!.ولما ذا خسرت هذه المطبعة أو تلك كلّ هذه المبالغ؟..هل الكتّاب هم السّبب؟.. أم أنّ النوعيّة غائبة أو مغيّبة؟.. وما السّرّ في تراكم بعض الأعمال في رفوف المكتبات منذ سيطرة المؤسّسة الوطنيّة للكتاب؟ ([2]) .. هذه المتاعب وغيرها عجّلت بإقبار الثّقافة؛ ناهيك عمّا يروّ جله بعض الجهّال المغرورين من أنّ البلـد لا يحتاج لقصص وروايات، وشعر ونقد (أيْ: لا يريد أدباً) ..فما ذا يريد إذاً ؟!...ولْنطرح الأسئلة بصُراح:

- كم من المجاميع القصصيّة التي صدرت حتّى الآن في الجزائر؟
- كم عدد الرّوايات؟
- كم ديواناً شعريّاً؟
- كم كتابا نقديّاً؟
- كم كتاباً في الدّراسـة؟ ....

الأجوبة في صدري، ويعرفها كثير من الكتّاب أفضل منّي. إنّما الأكيد أنّ هذا الذي طُبع حتّى الآن لم يصل إلى ما طُبع في مدينة صغيرة من العالم المتحضّر. وإذاً، فأين القاصّون الذين أبدعوا حتّى أتخموا؟ وأين الرّوائيّون؟ وأين الشّعراء؟ وأين؟ وأين ؟! .. إنّ الذي يزعم أنّه قد وصل إلى القناعة الفكريّة والتُّخْمة الأدبيّة أقلّ ما يوصف به أنّه مخبول أولق، لأنّ أسلافنا قد توصّلوا إلى فرض أدبهم وفكرهم، ومع ذلك لم يزعم أحد يومذاك أنّ القوم ما عادوا في حاجة إلى الأدب أو أحد صِنْوانه، حتّى قال ابن عبّاس (رضي الله عنه) ناصحاً: « الشّعر ديوان العرب، فإذا خفي عليهم الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغتهم رجعوا إلى ديوانهم فالتمسوا ذلك .» ([3]) وكلّنا يعلم التّشجيع الكبير الذي لقيه الأدب في عصورنا الزّاهرة على الرّغم من منافسة العلوم ، ولكنّ العلوم الطّبيعيّة والدّقيقة ـ بالمفهوم شبه المعاصر ـ كان لها مجالها، وكان للأدب بابه الذي يؤْتى منه !. ومن أثر ذلك التّاريخ المزدهر قصص لا تُنسى، فهذه قبيلة (بني نمير) كانت تفخر بنفسها وتزهو باسمها، وكان الرّجل منهم إذا قيل له: ممّن أنت؟ يجيب بصلف وتيه: نُمَيْـريٌّ كما ترى!. فما زالت تلك

دعواهم حتّى برز لهم رجل ساخن الكلمة، محدّق للأنساب محقّق، ومهدّم للطّمأنينة؛ وهو جرير الذي قال:

فَغُضَّ الطّرْفَ إنّكَ منْ نُميْرٍ فلا كعْباً بلغْتَ ولا كِـلابـا

فلم يبق نميريّ إلاّ وطأْطأ رأسه خِزْياً من هذا القول، وهرباً من هذه النّسبة السّبّة ، وصار أحدهم إذا سُئل يجيب بصوت خفيض: " من بني عامر بن صعصعة " فقال جرير قولته الشّهيرة: « قدْ والله أخزيْتها آخر الدّهر!. » ([4])

وحسْبُنا من ذلك كلّه ما قاله الرّسـول (صلّى الله عليه وسلّم) لحسّان وغيره من الصّحابة ، وهو يحثّهم على هجاء قريش: «أهجوا قريشاً، فإنّه أشدّ عليها من رشْقٍ بالنّبل.» ([5]) وقال (ص) عن أثر هجاء حسّان على مؤازرة الإسلام، وكسر شوْكة المشركين: « هجاهمْ حسّان فشفى واشْتفى.» ([6]) وهذا الذي استشهدنا به يدلّ على أنّ الأدب كان يتبوّأ مكانة مرموقة في المجتمع العربيّ الإسلاميّ، ويحتلّ معْلماً بارزاً من معالم حضارتنا على امتداد العصور، لكنّ اليوم ـ وفي عصر الظّلام والأمّيّة بالنّسبة لعالمنا العربيّ ـ صار النّاس يتساءلون ويتناقشون أيّ معنىً للأدب في وقت امتلأت فيه البيوت والأسواق بالتّكْنولوجيا والتّقدّم الصّناعيّ المُذهل؟! ولعلّ هذا الشّكّ في جدوى الأدب راجع إلى سيطرة المادّة على العقول والقلوب، وانتشار الجهل، وطغْيان الضّعف الفكريّ، وإسناد المناصب إلى غير أهلها ممّا نتج عنه التّساوي بين الأعمى والبصير، بل إيثار الأعمى على البصير! . وكثيراً ما يساهم الكتّاب أنفسهم ـ شاعرين بذلك أملا ـ في المساعدة على المحْنة، حيث إنّ كثيراً منهم يتمنّى أنْ لو كان مُرصّصا أو نجّاراً أو فلاّحاً حتّى يُشبع نفسه وعائلته، ولا أقول أمنية أخرى في ذهن معظم الكتّاب، وهي أمنية ثقافة القدم اليمنى أو القدم اليسرى ليداعب بها كرة جلديّة تجلب له الملايين المُمْلينة .

إنّنا لا ندعو إلى أن يكون الكاتب مادّيّا لا يعمل إلاّ إذا ضَمنَ أنّ عمله سيُدرّ عليه ربْحا خياليّاً كالتّاجر الشّره، ولكنّا نريد أن يكون للكاتب أدنى حقّ على الأقلّ فتُمنح له مكافأة حينما تُنشر أعماله على أعمدة الجرائد والمجلاّت، أو يُسمع صوته في الإذاعة، أو يُشاهَد وجهه على الشّاشة الصّغيرة، ومجرّد الإخْلال بهذا الحقّ يؤدّي إلى التّقوْقع واليأس؛ إذْ إنّنا لا ننتظر من الكاتب أن ينتج في ظروف عاقّة ومُعيقة، وخُطوب مدْلهمّة؛ بل لا بدّ من أن نوفّر له الجوّ الذي يُحسّ فيه على الأقلّ بأنّه عضو منتج، له فائدته في المجتمع، لأنّ الشّائع في الأفكار المستوْرَدة التي يعرفها الخاصّ والعامّ خطأً أنّ الفكر ليس منتجاً، ومن ثَمّ، فلا قيمة

له ولا أهمّيّة. وغرْسُ فولة أو عدسة خير من كتابة قصّة، وبذْرُ قمحة أفضل من كتابة رواية أو قصيدة... إلى غير ذلك من الهذيان الذي كثيراً ما يسود جلساتنا وخطابنا الاجتماعيّ على وجه الخصوص!. ([7])

وبعد هذه الإشارات التي كانت عبارة عن خواطر وتساؤلات، ننتقل إلى نقطة أخرى لها علاقة بالكتابة، وهي مشكلة توزيع الكتاب، وأوّل ما يسترعي الانتباه أنّ برنامج التّوزيع شبه منعدم، وما يُطبع يظلّ مكدّسا بأعداد هائلة في المخازن، ممّا يجعل كثيرا من دور النّشر عبارة عن مؤسّسات تخْزينيّة . وبمثال بسيط: لو أنّ التّوزيع يتمّ حسب البلديّات ([8]) فحسب، لنَفِدَ العدد المطبوع في أقلّ من عام حتّى لا أقول في أقلّ من نصف هذه المدّة. أمّا أن يبقى الكتاب محجوزا محْجوراً داخل الصّناديق أو مُلقى على الأرض في دهاليز سفليّة؛ ثمّ يُقال إنّ الكتاب الفلانيّ لا إقبال عليه، أو أنّ دار النّشر الفلانيّة قد خسرت، لأنّ ما طبعتْه لم يُسوّق منه إلاّ القليل، فهذه حجّة واهية. ثمّ أين التّوزيع إلى العالم العربيّ ؟ . لما ذا يصلنا ما يُطْبَع في القاهرة وتونس وبيروت والمغرب وفرنسا وبريطانيا وغيرها من البلدان العظمى والدّنيا ونحن نتفرّج ؟! هل أنّنا لسنا في مستوى تصدير كتبنا إلى العالم العربيّ على الأقلّ؟..أسئلة كثيرة ومحيّرة ومُذْهلة، علْماً بأنّ عدد النّسخ من كلّ مطبوع جديد لا تتجاوز في الغالب الأعمّ 3000 أو 5000. وهو رقم يثير الحَيْرة والحسرة والألم جميعاً، إذْ لو أنّنا قسمنا هذا العدد على ثلاثين مليون جزائريّ، فكم يكون عدد القرّاء في بلادنا؟ بل إنّ هذا العدد التّافه الصّغير لا ينفد إلاّ بعد مدّة قد تتجاوز الخمس سنوات!. إضافةً إلى أنّ دور النّشر في العالم، تقوم بالإشهار على صفحات الجرائد والمجلاّت، وشاشات التّلفزيون، في حين أنّ الدّور الوطنيّة المكلّفة بالطّبع والنّشر عندنا لا تكلّف نفسها ذلك، بل ربّما تعدّه حملا ثقيلاً وعملاً زائداً.

وممّا يضاعف من ألم الكاتب أنّه وبعد كلّ هذه المراحل والسّلالم التي يرقاها مخطوطه ليُطلّ على الجمهور، يجد نفسه إزاء حجب سميكة تحول بينه وبين اتّصال عمله بالقارئ، مع أنّ المتعارف عليه، هو أنّ « القصّة أو القصيدة تتطلّب لاعبيْن اثنيْن، هناك الطّرف المرْسِل، وهو الكاتب، وهناك الطّرف اللاّقط؛ وهو القارئ. ولا بدّ للّعبة كي تنجح من أن تُلعب بجدّيّة من قِبَل الطّرفيْن. » ([9])

وفضلاً عمّا ذُكر، فإنّ هناك عاملاً آخر يساعد بصورة أو بأخرى على انتشار الكتاب والإقبال عليه، ونعني به عامل النّقد. وحتّى وإن كانت هذه الكلمة كبيرة إلاّ على

الذين هم أهل لها، فليس كلّ من طلْسَمَ سطورا ناقدا، وليس كلّ من أخاف المبدع بهراوته اللّفظيّة أو سفّوده الإيديولوجيّ ناقدا، ويكون العكس صحيحا بالنّسبة للمبدعين، فليس كل عمل كُتب عنه هو حقّا عمل ناجح، إذْ كثيراً ما يصادفنا ناقد يُقبل على عمل قد لا يستحقّ كلّ ذلك التّهويل، غاضّاً الطّرْف عن أعمال أخرى قد تكون أجلّ فكرةً وأسمى معنىً . ولا بدّ من التّأْكيد أننا - وإن كنّا متّفقين على أنّ العمل الأدبيّ ليس قمحا يمكن تصفيته من عصْفه بعد طحنه - فإنّ ذلك لا يمنع من الإشارة بأنّ النّاقد يُشترط فيه أن يكون أعمق معرفة وأعلم بالموضوع الذي يستوجب الوقوف عنده أكثر من غيره. ويبدو لي أنّ المهمّ هولاعتناء بما نكتب، لأنّه من الجنون أن نشتكي من إجحاف المجتمع في الوقت الذي نحن فيه لا نقرأ لبعضنا، ولا نطّلع على ما نكتبه أو كتبناه. وكثيراً ما يُفْحم أحدنا صاحبه حين يفاجئه بسؤال عن قراءة عمل أدبيّ فيُضْطرّ إلى المراوغة على أنّه قد قرأه وهو ليس ذا شأْن كبير(يقول هذا لغير صاحب المؤلَّف)، فإن كان المؤلِّف نفسُه هو السّائل، فإنّك تراه يغيّر صيغة جوابه فيقول: « أنت كاتب ماهر. عملُك هذا يحظى بالتّقدير والتّبجيل.» كلّ هذا يتمّ في كواليس معتَّمة، ولا يجرؤ على التّصريح به في مقالة أو محاضرة.

ثمّ إنّ هناك شبحاً آخر يُخيف الكتّاب، وهو شبح التّعصّب من بعض الجرائد والمجلاّت التي تسارع إلى نشر الغثّ واللّعين، تاركةً عن قصد متعمَّد أفعالاً يُبعث بها إليها لسبب أو لآخر . ولسنا ندري حتّى متى تنتهي هذه المعضلة التي لا تزداد إلاّ اسْتفْحالاً. ومن هنا نتوصّل إلى حقيقة مرّة، وهي أنّه ليس بالضّرورة أنّ كلّ من يُنشَر له هو أصلح من غيره، ومثال الرّوائيّ الجزائريّ رشيد بوجدرة خير ما نستشهد به في هذا المجال، فقد كانت دور النّشر الفرنسيّة (الفرنكفونيّة) تتهافت على أعماله، لكنّه ومنذ تحوُّله إلى لغته الأمّ ، تبرّأت منه هذه الدّور وأعرضت حتّى عن أعماله المترجمة ، وتنكّرت له الجرائد الفرنسيّة؛ ومنها جريدة (لموندLe monde) التي أوصت هذه الدّور، فقالت: « لا ترسلوا لنا رواية لبوجدرة أو أيّ نتاج له . ومنذ الآن، لن تجد أعماله لدينا مَسلكاً» ([10]) . بينما نجد هذه الجريدة تعمل على ترويج ما يخدم هدفها وبلدها، فتصف ما يكتبه الطّاهر بنجلّون أو كاتب ياسين بأنّه كرز شهيّ يُلتهَم بدون مضغ .

* * *

وأخيراً، فإنّ هذا الذي جئت به لم يكن إلاّ خواطر شخصيّة خرجت بها من المعاناة التي يعيشها الكتّاب، وما أريد بها إلاّ الوصول إلى خدمة الثّقافة والوطن أوّلاً وأخيراً، لأنّ معرفة الدّاء بعد تشريحه يسهّل على المبعض إزالته، ولكنّ الجهل به هو الذي يؤدّي إلى ما لا تُحمد عقباه.

الإحالات

[1] ـ تُراجع مجلّة (ألف باء) العراقيّة: يونيو 1987 م، ع. 975 ـ ص 50.

[2] ـ لا يجحد أحد الدّور الذي قامت به هذه المؤسّسة في التّعريف بالكتّاب الشّباب، وإغداق العطف المعنويّ على كثير منهم، ولكنّ ذلك التّشجيع تحوّل إلى نقمة على الأدب والثّقافة بعامّة، حيث صار كلّ من هبّ ودبّ ينشر فيها الرّداءة، فأفضى ذلك إلى إفلاس هذه المؤسّسة بعد أن نفد الدّعم الذي كانت الدّولة تقدّمه لها، وذلك لأنّ معظم الذين كانوا ينشرون فيها أصاب أعمالَهم الكسادُ والبوار، فانعكس أولئك كلّه على المؤسّسة المذكورة، ولحقها الكساد بدورها فأغلقت أبوابها بعد أن أثقلت هياكلَها الدّيون، وعجزت حتّى عن دفع رسوم الكهرباء... ولله في خلقه شئون !.

[3] ـ الزّركشي: كتاب البرهان في علوم القرآن مطبعة الحلبي ـ 1976م ـ 1: 293 ـ294.

[4] ـ الشّرباصي: سلاح الشّعر ـ الدّار القوميّة للطّباعة والنّشر ـ مصر ، ص 55 .

[5] ـ صحيح مسلم ـ رقم الحديث: 4545، كتاب: فضائل الصّحابة ـ روثُه عائشة (رض) .

[6] ـ صحيح مسلم ـ رقم الحديث: 4545.

[7] ـ لا نريد بهذا القول أن ننقص من أهمّيّة الفلاحة ولا من قيمتها وأثرها على المجتمع، وإنّما نريد أنّ الجُهّال يبدّلون الخبيث بالطّيّب، ويقيسون الأشياء بغير مقياس حقيقتها الذي يجب أن تُقاس به .

[8] ـ عدد البلديّات في الجزائر ما نحوه 1516.

[9] ـ خلدون الشّمعة: النّقد والحرّيّة ـ اتّحاد الكتّاب العرب ـ دمشق 1977 م ، ص 16 .

[10] ـ مجلّة " اليوم السّابع " التي تصدر بباريس، نوفمبر 1987 م، ع. 183 ـ ص 38 ـ حوار للأديب بوجدرة مع خميس الخياطي المحرّر بالمجلّة المذكورة.